الفصـــل السابـــع

مصر فوق كل شىء

www.anwarsadat.org

1

كثيراً ما تفهم الكرامة الشخصية فهما خاطئاً بسبب النظرة الذاتية الضيقة التى تفرض نفسها على الإنسان وتصيبه بالحساسية الشديدة التى تجعله يعتقد أن كل حركة أو سلوك تجاهه يهدف إلى امتهان كرامته. وفى الحال يشرع أسلحته لصد الهجوم المضاد الذى يتوهمه مما يوسع الفجوة بينه وبين الآخرين ويقضى تماماً على أية نظرة موضوعية للأمور. وهذا أكبر دليل فى حد ذاته على فقدان الثقة فى النفس وضعف الكيان الشخصى الذى يجعل الإنسان يتوهم أن كرامته فى مهب الرياح دائماً ومعرضة لكى يدوسها الآخرون. وتزداد خطورة هذه الظاهرة إذا كمان الشخص يتولى منصبا قياديا، إذ أنه فى هذه الحالة لن يستوعب أعباء المنصب وتبعاته بسبب عدم فصله بين أبعاد المنصب كمسئولية قومية عامة واهتماماته الذاتية مما يدخله فى دائرة مفرغة من التخبط والحساسية المفرطة التى يمكن أن تعود عليه بالعديد من العقد النفسية .

148وصيتى

ولو كنت أتصرف من هذا المنطلق لاستطاع السوفييت، توريطى مع إسرائيل دون أن استعد للحرب معها عام1971 وهو العام الذى أعلنت أمام العالم كله أنه سيكون عام الحسم ، وذلك بناء على وعد السوفييت فى بإمدادى بالأسلحة اللازمة لشن الهجوم ولكنهم لم يفوا بوعدهم حتى أبدو أمام العالم فى ثوب الزعيم الذى

يقول كلاما لا يقدر على تنفيذه . ومع كل هذا لم تركبنى عقدة الكرامة الشخصية ، بل أحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت على من موسكو ولكننى فى نفس الوقت أحنيت رأسى لمصر فمن أجلها هانت على أشياء كثيرة لأننى لم أكن أفصل بين كرامتها القومية وكرامتى الشخصية بل من أجلها كنت دائماً على أتم استعداد لابتلاع كرامتى. كنت أضع فى اعتبارى دائماً أننى مادمت أحافظ على كرامة مصر فكرامتى الشخصية فى الحفظ والصون . فلم يكن يهمنى إطلاقا المظاهر البراقة الخادعة والعنتريات الجوفاء التى قد تشعل الحمية الوطنية للحظات تخبو بعدها لسنوات .

وإذا كنت قد عودت شعبى على أن أقدم لهم قطعة حية من " تجاربى الشخصية حتى يتجسد أمامهم المفهوم العملى للكرامة ، فيكفى أن أحكى لهم قصتى مع سنة الحسم وهى التى حددتها بعام 1971. فى هذا العام قمت بثورة التصحيح وأدرك السوفييت- طبقا لاعتقادهم- أننى قمت بتصفية من كانوا يسمونهم برجال موسكو.. ولذلك جاء بودجورنى فى سرعة

البرق لكى يزور القاهرة فى مايو 1971. أى بعد قيام ثورة 15 مايو بأيـــام. وظـــل يلح على إلحاحا رهيبا أن أعقد مع السوفييت معاهدة صداقة على الرغم من أن عبد الناصر طلبها مهم قبلى فرفضوا، ثم عاد ليطلب عقد حلف معهـــم فأصـــروا علـــى الرفض. كان فى اعتقاد السوفييت أن ثورة التصحيح المصـــرية ف! مـــايو 1971 كانت بمثابة ضربة قاس!ة لنفوذهم فى المنطقة وانتصار غير مباشـــر للأمريكـــان. ولذلك أرادوا بمعاهدة الصداقة تلك أن يؤكد للعالم أن مكانتهم الأثيرة فـــى المنطقـــة مازالت كما هى على الرغم من تصفية رجالهم .

لم أجد مانعا من عقد المعاهدة لأن همى الأكبر كان الحصول على الأسلحة اللازمـــة لحسم القضية عام 1971. وسافر بودجورنى من القاهرة وفـــى حقيبتـــه معاهـــدة صداقة مع مصر اعتبرها السوفييت ضمان جديدا للعلاقات الودية بيننا، ورأت فيهـــا الصحف السوفييتية نجاحا للاتحاد السوفيتى وهزيمة للولايات المتحدة التى حاولـــت بزيارة- روجرز لمصر فى 3 مايو 1971 أن تدق إسفينا فى العلاقات المتينة بـــين البلدين طبقا لتعبيرهم. كما أن السوفييت رأوا فى هذه المعاهدة بعد تصفية رجـــالهم فى السلطة، تأكيدا لأن العلاقة بيننا ليست علاقة أشخاص بأشـــخاص، وإنمـــا هـــى علاقة دول أى علاقة أبق!. وأهم من الأشخاص.

950وصيتى

لكن همومى لم تخف، فعندى تجارب معهم قبل ذلك طويلة وعديدة، ولكنى ومع ذلك جعلت أمنى نفسى.. ولم يغص عن بالى لحظة واحدة أننـــى قـــد حـــددت ســـنة 1971 بس!ه الحسم، وأصبح معروفا للعالم كله.. وللسوفييت قبل غيرهم.. ما هـــذا الذى نريد أن نحسمه.. ما هو المطلوب س السوفييت لكى يساعدونا على ما نحـــن

فيه، وما نحن مقبلون عليه.. وأهم من ذلك كله أننى أوضحت كل شـــىء.. فتحـــت قلبى للسوفييت تماماً وأطلع!ثم على كل خبايای.. أى أنه لم يعد لهم أى عـــذر فـــى الوقوع فى أى سوء تفاهم أو سوء فهم. وقد تنبه المعلقون السياسيون والصـــحف الغربية إلى عبارة جاءت فى كلمة الترحيب فى الحفل الذى أقمته لبودجورنى وقلـــت فيه :

''نحن نريد أن يعرف الكل أننا لسنا على استعداد لأن نفرط فى الأرض أو فـــى الحق مقابل سراب ، أن الكلمات المعسولة ليست دليلا على صـــدق النوايـــا التـــى وراءها " .

www.anwarsadat.org

2

واستر حت إلى أن المعانى التى أردت أن أؤكدها للسوفييت أمام العالم كله، قد بلغت غايتها، فأنا أريد فقط من السوفييت أن يفهمونى وأن يقدروا موقفى. أمام شعبى وأمام العالم كله، وأن تكون الصداقة والكلمات الحلوة حقيقة وليست فاتحة

للشهية، ثم يجىء بعدها طعام .

ولكن من المؤكد أن السوفييت ليسوا سعداء لكل ما حدث فى مصر بعد عبد الناصر. فأنا لست رجلهم، وإننى صفيت رجالهم.. وإننى ألغيت الحراسات التى فرضت على الناس، ثم إننى بطبيعتى ضد القهر والظلم وإثارة الحقد بين الطبقات والفئات، كما أننى أسمح بالخلاف فى الرأى ولا أسمح بالصراع ، ثم إننى أكدت أننى مختلف معهم وصارحتهم بغضبى وضيقى.. ولابد أنهم يتوقعون منى ما يضايقهم أكثر.. وقد هددتهم بأن للصبر حدودا وبعدها لابد أن أقول للشعب ماذا جرى.. وفى ذلك فضيحة لهم أمام العالم كله .. فلا يعقل أن أحافظ على كرامتهم بينما هم لا يعيرون كرامتى

152وصيتى

أدنى التفات. ولذلك فهم يخافون أن أكشف القناع الذى يضعونه على وجوههم فيعرف الشعب حقيقتهم.. وحقيقة الهوان والعذاب الذى لقيته وتلقاه مصر معى على أيديهم.. لهذا كله كان لابد أن يفعل السوفييت شيئاً بسرعة فى مصر أو فى السودان أو فى أية دولة أخرى فى العالم العربى أو فى الشرق الأوسط كله.. وقد حدث بوضوح بعد ذلك.. ش كان الانقلاب الشيوعى الذى فشل فى السودان فى يوليو 1971.

بعد هذا كله، وبسببه حصلت قطيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى لا كـــلام بيننـــا ولا سلام أيضا.. ولكن كان مفهومى للكرامة ينهض على أساس ما أعلناه مـــن مبـــادئ ومواقف مهما اقتضانا ذلك من جهد وتضحيات.. فلن نسمح لهذه الأزمة أن تتجمـــد معالمها ومعالم حقنا تحت تراب النسيان.. لابد أن نتحـــرك وإلا ضـــاعت الكرامـــة الحقيقية لمصر.

من هذا المنطلق وحده بدأت أنا الكلام مع السوفييت برغم القطيعة التى فرضوها على العلاقات بيننا.. فالمسألة ليست كرامتى الشخصية ولكنها كرامة مصر.. بعثـــت أذكرهم بما قاله بودجورنى من أن كل الأسلحة المطلوبة سوف تصلنى بعد أربعة أو خمسة أيام من تاريخ عودته إلى موسكو، وأن ذك الحمام هو عام الحسم وشـــرحت لهم معنى الحسم.. ولكن السفير السوفيتى يجىء وعلى لسانه العبارة التى عرفتهـــا ومللتها: القادة السوفييت فى القرم . أى أنهم يصطافون علـــــى شاطئ

www.anwarsadat.org

شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ولذلك فالدنيا كلها معطلة: ذهابا لا لشىء يصل، وإيابا لا شىء يجىء !!

وأعود أذكرهم بالمعاهدة التى بيننا . والجواب: القادة فى القرم.. وأقول للسفير: أن موقفى من السودان موقف مبادئ.. قل لهم ذلك.

فيقول: إنهم فى القرم

ـ وسنة الحسم.

ـ القادة فى القرم

ـ ماذا أقول للشعب المصرى وللعالم العربى والعالم كله؟

ـ فى القرم!!

أما ما الذى يجب أن أفعله فهذه مسألة تخصنى أنا وحدى.. ومن الضرورى أن أفكر فى كل الذى قلته ووعدت به.. لابد أن أجد لى صيغة مناسبة أواجه بها الشعب. هل أحكى للشعب قصة السوفييت؟ هل أفضح هذه العلاقة؟ لو فعلت ذلك لكان أضرارا مباشرا بالسوفييت. هل من مصلحة مصر أن أفعل ذلك؟ ثم ما هى أقصى درجات احتمالى للأذى؟ إننى قادر على أن أحتمل الكثير، ورصيدى من الصبر كبير.. ولكننى أخشى أن ينضب هذا الرصيد فأجدنى أمام حالة من الغضب لا أستطيع أن أسيطر عليها . ولكن مصر؟ إن من

أجلها يهون كل شىء.. وقد هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة علـــى نفســـى حتـــى كرامتى هانت من أجل مصر.. ابتلعتها كثيرا وشربت وراءها أكوابا من التشهير بى وبنظامى فى الحكم.. وفى كل يوم كنت أشعر أنهم لا يجففون الجراح وإنما يضعون الملح علما الجراح .

www.anwarsadat.org

3

وأخيرا وفى آخر سبتمبر جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفييت علـــى استعداد لأن يروك .

قلت: خير.. متى؟

قال: فى 11، 12 أكتوبر .

ولا أظن أن السفير قد لاحظ أننى كتمت غيظى أو ربطت " الدم على القــيح " كمــا نقول فى الريف .

فقلت: لا مانع.. أنها قضية مصر.

ولكى يفهم الرجل بالضبط ما أردت أن أقول ص كررت المعنى قائلا: إنها قضــية مصر ومن أجلها فإننى أتهاون مع نفسى.. رغم كل ما أصابنى.. قبلت هذه الــدعوة فورا.. ولم أقل له ما كان يدور فى نفسى من أنه لو كان الأمر يخصنى أنا ما ذهبت إلى موسكو أو حتى رأيت هؤلاء الناس.. ولكن الضرورة لها أحكــام.. والضــرورة هى مصر، وأحكامها أن أمد يدى أطلب المزيد من السلاح .

وكما حدث فى أول مارس سافرت إلى موسكو فى 11 أكتوبر والذى جرى فى الكرملين هو ما توقعته بالضبط.. فقد كان لزاما على أن أروى من جديد كل ما حدث للعلاقات بيننا وما وعدوا به جمال عبد الناصر وما وعدونى به. مع أننى حكيت ذلك عدة مراث ومن الغريب أن لديهم استعدادا لسماع الشىء الواحد ألف مرة. وكأنهم يسمعون لأول مرة. وأعدت عليهم ما سبق أن قلته إلى أن وصلت فى كلامى إلى ذكر " سنة الحسم " فإذا بهم فى نفس واحد يسألون : " قل لنا شيئاً عن سنة الحسم هذه ؟ " أقول لهم عن سنة الحسم ؟ بعد كل هذا الذى أعلنته فى مصر أمام رجلهم بونا ماريوف وما أعلنته بعد ذلك وما حكيته لهم.. مطلوب أن أشرح لهم معنى سنة الحسم؟ ثم مطلوب منى أن أشرح لهم ما هو الحسم؟.

المهم أن القادة السوفييت وعدونى بإرسال الأسلحة التى طلبتها قبل نهاية عام 1971 وتوالت الشهور بطيئة جدا وموجعة جدا للنفس والكرامة وأحسست بأسنان الزمن أليمة . واقترب أكتوبر وانتهى وجاء نوفمبر وانتهى ثم ديسمبر وفى يوم 8 ديسمبر وقعت الحرب بين الهند وباكستان ، ووقف الاتحاد السوفيتى إلى جانب الهند واستخدم مطارات مصر قاعدة لإمداد الهند بالذخيرة والسلاح !

وفى نفس الوقت الذى كنت فيه فى موسكو كانت أنديرا غاندى تلف العالم تمهد لهذه الحرب سياسيا وإعلاميا.. إذن فقد

مصر فوق كل شىء 157

كان السوفييت يعلمون ما سوف يحدث فى ديسمبر وكانوا قد أعدوا كل شىء لذلك ، وكان فى استطاعتهم أن يقولوا لى : لا داعى لسنة الحسم هذه.. فسوف نكون

مشغولين لسبب أو لآخر، ولكنهم لم يفعلوا، وأخمدت غيظى فى نفسى وقلت: لقد كانوا أصدقاءنا فى الحرب ، وكذلك كانت الهند.

وبعملية حسابية بسيطة جدا أدركت أن سنة 1971 لن تكون سنة الحسم.. وليس من العقل أن أجعلها كذلك.. فإن حرب الهند وباكستان قد لفتت العالم كله واسترعت كل اهتمام الناس وعطفهم وغضبهم.. وحرصهم على المساعدة أو التوسط أو الدعوة إلى السلام. ولا يمكن أن تحظى مصر بهذا كله، فسوف تكون حربنا هذه قضية صغيرة أمام قضية كبيرة أو حدثا عابرا أمام كارثة دولية.

إذن لقد انتهى كل شىء ولن تكون سنة 1971 هى السنة التى ناديت بها ووعدت وهددت.. باختصار انحسمت سنة الحسم بلا حرب، وابتلعت كرامتى حتى أتفادى فوقفا قد أندم عليه فيما بعد.

استدعيت يوم 9 ديسمبر السفير السوفيتى لأقول له: واضح الآن أنكم لن تبعثوا بأية أسلحة.. وإذا جاءت فبعد عام الحسم.. فما هو العمل ؟

ولم يقل السفير شيئاً.

158وصيتى

وقلت: حتى إذا أرسلتم هذه الأسلحة، فلن تصل قبل فبراير.. وبعد ذلك بشهور يتم تركيبها والتدريب عليها.

ولم ينطق السفير.

ولم يرسل السوفييت هذه الأسلحة حتى كتابة هذه السطور

عام 1977.

وعدت أهز السفير بعنف : ماذا أقول للشعب.. إننى لو. حكيت كيف حدث هذا كله وما كان منكم لكانت هذه فضيحة كبرى لكم.. ولأضرت بكم ضررا بالغا فى المنطقة وفى العالم كله. ومع ذلك لم أدع إحساسى بالكرامة المجروحة يسيطر على الموقف ويفقفى تحكمى فيه.. فطلبت من السفير السوفيتى أن يبلغ موسكو أننى أريد رؤية القادة السوفييت قبل نهاية ديسمبر.. هذه المرة دعوت نفسى إلى زيارة قادة الكرملين لأن كل شىء يمكن أن يهون فى سبيل مصر.. قلت للسفير: قبل أن أصل أحب أن يكون معروفا مقدما أن الغرض من هذه الزيارة هو أن نصدر بيانا نغطى به الموقف الفظيع الذى يواجهنى فى مصر وفى العالم كله.

وتوقعت أن يحددوا الموعد بعد أسبوع أو أسبوعين.. لم يحدث شىء من ذلك فقد مضى أسبوع ومن بعده أسبوع آخر، وفى يوم 28 ديسمبر جاءنى السفير السوفيتى يحمل هذه البشرى: القادة السوفييت يسعدهم أن يستقبلوك فى 1، 2 فبراير.. ومعنى هذا أنه مطلوب منى وحدى أن أغطى فوقفى.. فأنا

الذى قررت وينبغى على أن أتحمل النتائج مع أننى لم أقرر ذلــك إلا اســتنادا إلــى وعودهم وعلى أرفع مستويات القيادة السوفيتية. إذن هذا هو المطلوب !
معنى ذلك! أنه إذا كان السوفييت برجالهم وعملائهم لم يفلحوا فى إسقاطى، فهــذه هى الفرصة التى أقوم فيها بإسقاط نفسى.. بيدى لا بيد السوفييت !

ومع ذلك أحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت من موسكو فأطاحــت بســنة الحسم كلها، ولكن لن أسمح لها بان تطيح بى وبآمال شعبى.. وعندما أحنيت رأسى للعاصفة أعترف أننى أحنيته لمصر.. فقلت للسفير: قل للقادة السوفييت أننى مسافر إلى موسكو يوم أول فبراير.

أحب أن أضيف لشعبى قولى بأنه لم يكن من السهل على نفسى وما كان فــى أى وقت أن أقول أن سنة الحسم ذهبت بلا حسم .. وهى عبارة قصيرة تمر عليها العين فى ثانية.. ولكن كم من الساعات وأنواع العذاب والهوان عصرت نفسى وطويتهــا على أشد أنواع المرارة التى عرفتها فى حياتى.. ولو كان الأمر يخصــنى وحــدى لهان كل شىء.. وقبل ذلك هانت على نفسى أشياء.. ولكنها قضية شعب ومســتقبل أمة، وقدر منطقة.. لقد ذهبت سنة الحسم، وكان على أنا وحدى أن أواجه الشــعب وأقول ما أقدر عليه.

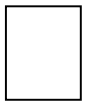

وأشهد الله سبحانه وتعالى أننى لم أكن وحدى فى هذه المحنة فقد كان الشعب العريق معى وكانت مشاعره كلها تشد أزرى.. فشعبنا أدرك بوجدانه الأصيل أننى كنت صادق العزم ، وأن السوفييت هم الذين أخطئوا فهمى وفهم الشعب وأخطئوا فى الحساب.. أرادوا أن يكشفونى فانكشفوا أرادوا أن يغرقونى فى وعودى فغرقوا هم بوعودهم . وثار الناس عليهم فى كل مكان فى مصر.. إن الذى يسترجع ما قيل فى الصحف وفى البيوت وفى المدارس وفى الشوارع وفى كل مكان.. يجد أن الناس قد صبوا الغضب كله على السوفيت.

ولم أترك العنان مرة أخرى لكرامتى الشخصية لكى تثأر منهم بشكل أو بآخر.. فعلى الرغم من كل ما حدث وقفت فى مجلس الشعب أحييهم وأشيد بصداقتهم، وأذكر لهم مساعدتهم لمصر فى أشد الأزمات.. والله يعلم أننى صادقا فيما أقول .

www.anwarsadat.org

كان كل هدف إسرائيل فى هذه المرحلة أن تضع العالم كله أمام الأمر الواقع بالنسبة للوضع فى الشرق الأوسط.. والأمر الواقع هو أن يبقى اليهود على أرضنا كما هم.. ونظل نحن نحترق فى عجز ويأس وهوان كما نحن .. ونحن بدورنا نستحق هذه العقوبة وزيادة إذا ارتضينا الهوان، وإذا قبلنا الجمود.. وإذا نظرنا إلى الضفة الشرقية من القناة ولم تغل الدماء فى عروقنا.

إن لنا مئات الآلاف من الجنود يعيشون تحت نار الشمس وفوق التراب وأيديهم على السلاح ينتظرون لحظة الانتقام للكرامة وللأرض وللعرض. تلك الكرامة كانت الهدف الاستراتيجى الرئيسى والنهائى الذى حشدت له كل طاقاتى وأعصابى بحيث لم أشتتها فى معارك فرعية وثانوية من أجل الكرامة الشخصية التى أعتبرها جزءا لا يتجزأ من الكرامة القومية.

ومع أوائل عام 1972 اشتد الهجوم العنيف فى مصر على السوفييت.. فهم الذين تخلوا عنا لأنهم أرادوا أن يؤكدوا لى وللعالم أننى لا استطع أن أتخذ قرارا.. فالقرار قرارهم والرأى رأيهم تماماً كما عرضوا علينا من قبل أن نستخدم طائرات تتلقى أوامرها من موسكو.. ومعنى ذلك- تأديبا لى وتحذيرا جديدا- أنه بعد الآن يجب ألا أعلن قرارا قبل أن آخذ موافقتهم على ذلك.. فسنة الحسم هذه ما كان يجب أن

أعلنها، قبل أن أخطرهم بذلك.. وإذا أخطرتهم قامت لجانهم وهيئاتهم تدرس الموضوع سنة بعد سنة حتى تصل إلى قرار ويجيء القرار بعد عشرة أو بعد عشرين سنة، هذه هى الأصول التى يريدون منى أن أتبعها وألا أخرج عنها.

استشعر الناس فى مصر جرحا غائرا فى كرامتهم، وفوجئت فى ذلك الوقت بعريضة فوقعة من عدد من السياسيين وأعضاء الاتحاد الاشتراكى يتحدثون فيها عن محنة فظيعة تهدد مصر شعبا وأرضا وحضارة ويؤكدون أن الاتحاد السوفيتى يقدم لمصر العون الذى لا يسمح بتحرير الأرض واسترداد الحق وقالت العريضة إنه آن الأوان لأن ترسم مصر سياسة التحرير الوطنى على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها.. روحية ومادية هى الركيزة الأولى والأمنية الوحيدة لتلك السياسة وأنه آن الأوان لمواجهة الإسراف فى الاعتماد على الاتحاد السوفيتى لأن الاعتماد على السوفيت كل هذه السنوات لم تحرير الأرض وردع العدو .

وبرغم كل ما أعرفه من مشاعر الناس، فأنا واحد من أبناء الشارع وأنا فلاح أدرك تماماً مدى عمق هذه الجراح، فقد دافعت عن السوفييت وعن الصداقة بيننا. وذكرت لهم فضلهم.. بل إننى ذهبت إلى القول أمام مجلس الأمة أهدد بعد كل ما فعله السوفييت بى : هذا فوقفى والذى لا يريد ان يتعاون معى فليقدم استقالته أمام المجلس.. إلى هذه الدرجة

كنت أغطى فوقف السوفييت الذين أرادوا تعريتى وجرح كرامتى أمام الشعب وأمـــام الأمة العربية ، وأخيرا سافرت إلى موسكو فى أول فبراير 1 972 بناء على طلبـــى ثم فى 28 أبريل من نفس السنة بناء على طلـــبهم كنـــوع مـــن اســـتعراض قـــوة السوفييت أمام الأمريكان قبل زيارة نيكسون لهم فى مايو.

وعندما وجدت أن السوفييت يفترضون فى الوفاء المستمر بطلباتهم بينما يرفضون أو يتجاهلون تنفيذ أى وعد من وعـــودهم لمصـــر بإمـــدادها بالأســـلحة المطلوبـــة لاسترداد كرامتها المهدرة فى سيناء وعلى الضفة الشرقية للقناة، اتخذت دون أفـــى تردد قرارى بإنهاء مهمة الخبراء السوفييت فى 8 يوليو 1972.. وحتى هذا القرار التاريخى الخطير لم أتخذه انتقاما لكرامتى الشخصية التى تصور الســـوفييت أنهـــا أصبحت لعبتهم المفضلة، بل أصدرته من منطق قومى بحت يؤكد بأسلوب عملى أن المعركة معركة مصر وليست معركة الاتحاد السوفيتى بأية حال من الأحـــوال. ولـــم يفهم السوفييت هذا المنطق القومى إلا بعد مدة طويلة .

164وصيتى

5

كل ما أريد أن استخلصه من كل هذا السرد لشعبى أن إسرائيل والاتحاد السوفيتى تصورا أنه بالضغط النفسى والمادى على يمكن أن أنفجر ثأرا لكرامتـــى ممـــا قـــد يورطنى فى مواقف متتابعة لم أستعد لها سياسيا وعسكريا وبالتالى يسوء الموقف فى الشرق الأوسط اكثر من السوء الذى بلغه.

لم يكن مفهومى للكرامة شخصيا.. ضيقا بحيث أثور لأية بـــادرة عدائيـــة مـــن الطرف الآخر الذى غالبا ما يكون هدفه إثارتى المفاجئة الطارئة لكى يفلـــت زمـــام الأمور من يدى.. تركز مفهومى العملى للكرامة فى يوم الثأر العظيم مـــن إســـرائيل الذى شهده العالم كله مشدوها يوم السادس من أكتوبر 1973 .

فالكرامة عندما تثور يجب أن يكون لها من الأدوات والوسائل العملية ما يمكنهـــا من اجتياح من سبق لهم أن داسوها بالأقدام .. وألا تردى الوضع إلى ما هو أسوأ منه.

www.anwarsadat.org

أريد من شعبى أن يعى هذا الدرس جيدا فليس هناك ثمة شىء يهدد الكرامة الشخصية للإنسان أكثر من الثورة العصبية الطارئة.. والانفعال التلقائى المتفجر. والحكم المتسرع الطائش.. فهذه كلها عناصر نتخيل أنها وسائل سريعة وحاسمة للانتقام لكرامتنا ولكنها غالبا ما تؤدى إلى نتائج عكسية تماماً قد تضع الإنسان فى مواقف لا يحسد عليها. يظن معظم الناس أن الكرامة الشخصية لا تعنى سوى التميز والسطوة والسلطة ورفض أى نقد من أى إنسان.

وبهذا يفقد النظرة الموضوعية تماماً.. وقد جربت فى حياتى هذا النوع من الناس، فعندما أتناقش معه بهدوء وأوضح له بهدوء أكثر أنه قد اخطأ فى كذا وكيت، أجده محاولا كبت الغضب داخله لأنه يتصور أن المناقشة قد سارت فى طريق ضد كرامته.. وللأسف فإن هذه الظاهرة تتفشى اكثر بين الذين حصلوا على الدرجات العلمية مثل الدكتواره وغيرها. فبمجرد اختلاف وجهات النظر يشعر أن كرامته قد أهدرت لأن عقله الباطن يؤكد له دائماً من طرف خفى أن علمه النظرى الغزير قادر على أن يجنبه الوقوع فى الخطأ، وهذه نظرة قاصرة إلى الأمور لا تمت إلى الموضوعية الأكاديمية بصلة من قريب أو بعيد.

فى أحد اجتماعات مجلس الوزراء ضربت للوزراء أمثلة حية على المفهوم الخاطئ للكرامة وهو مفهوم خطير لأنه يؤثر عمليا على فكرنا وسلوكنا.. فمثلا لنى يوم من الأيام حدث تعديل وزارى أدى إلى انتقال بعض الوزراء من مناصبهم إلى مناصب أخرى كان ينقل مثلا وزير من وزارة عادية من الوزارات إلى منصب وزير دولة، فيعتبر هذا إهدارا لكرامته ، أو أن يعين أحدهم نائب رئيس وزراء بدون أن يرأس وزارات محددة على الرغم من أن مهمته الأشراف على قطاع كمال من الوزارة كلها.. ومع ذلك يضع كرامته فى الميزان.. وللأسف هذا المفهوم الخاطئ للكرامة مازال يؤثر على فكر وسلوك البعض من كبار المسئولين حتى الآن.

بعد ذلك التعديل جمعت مجلس الوزراء وعبرت لهم عن أسفى لوجود هذا المفهوم الخاطئ للكرامة بين معظمهم وشرحت لهم أمثلة حية من حياتى لكى أوضح لهم معنى الكرامة الحقيقية.. فقد كنت مثلا فى يوم من الأيام وزير دولة

www.anwarsadat.org

فى عام 1954 وكان ذلك هو المنصب الرسمى الوحيد الذى توليته لفترة محدودة جدا بعد قيام الثورة وإلى أن عينت نائبا لرئيس الجمهورية فى 25 ديسمبر 1969. وتراوح عملى بين عامى 1956 و 1969 بين جريدة الجمهورية والمؤتمر الإسلامى ومجلس الأمة.. وذلك يعنى أن الإنسان هو الذى يصنع المنصب وليس المنصب هو الذى يصنع الإنسان .

فى تلك الفترة أيضاً استدعى الأمر أن أعمل وكيلا لمجلس الأمة كان رئيسه هو زميلى فى مجلس قيادة الثورة ومن نفس الصف. وقبلت فى الحال بينما رفض زملائى هذا المنصب ظنا منهم أنه يمس كرامتهم عندما يعملون تحت رئاسة زميل لهم.. فقد طلب منى جمال عبدالناصر قبول هذا المنصب لأن المصلحة العامة تقتضى ذلك بسبب الصراع الذى نشب حول منصب الوكيل .

ولكن لم يكن منصب وكيل مجلس الأمة بالضحالة التى ظنها فيه كل الزملاء من وزراء مدنيين أو عسكريين وغيرهم ممن رفضوا قبول هذا المنصب.. وذلك لأن الوكيل فى غياب الرئيس له الحق فى رئاسة المجلس والحصول على كل صلاحياته وسلطاته.. وفى أغلب الأوقات يتبادل الرئيس مع الوكيلين الجلسات بصفة شبه دورية ولذلك لم أجد أية غضاضة فى قبول المنصب عندما عرضه على جمال عبد الناصر قبل انعقاد المجلس بساعات قليلة.. ولم يأخذ القرار منى تفكيرا يزيد عن دقيقتين

لأننى لست من النوع الذى يضع كرامته فى الكفة المقابلة لأى أمر من أمور الحياة.. فالمسائل تقاس بالجوهر وليس بالمظهر البراق الخادع.

قلت هذا للوزراء وشرحت لهم ما نراه فى دول الحضارة المعاصرة عندما تستقيل الوزارة ثم يدخل رئيس الوزارة المستقيلة وزيرا عاديا فى الوزارة الجديدة.. فأحيانا يعمل وزير خارجية أو داخلية أو مالية، وأحيانا يعمل وزير دولة إذا لم يجدوا له وزارة محددة.. ولكن هذا لا يقلل من شأنه إطلاقا فى نظر المسئولين الآخرين أو عند الفئات الشعبية. للأسف مازلنا نفتقر إلى هذا النضوج لأن مفهومنا للكرامة مازال ذاتيا ضيقا تقليديا. بينما للكرامة معنى كبير جدا لا يصح الزج به فى كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا.

فى أغلب الأحيان يؤدى هذا المفهوم الخاطئ للكرامة الى كثير من مركبات النقص والعقد النفسية التى تحول بين الإنسان وبين فهمه للآخرين فهما صحيحا. فهو دائم التحفز والهجوم لاعتقاده أن كرامته دائماً فى خطر.. وهذا المفهوم يتفشى عند المثقفين اكثر منه عند العامة.. ويمكن أن يؤثر على أقدار الأمة إذا تحكم فى المسئولين عن سير الأمور فيها.. ولحسن الحظ عندما قابلت الرئيس جيمى كارتر لأول مرة فى أبريل 1977 وجدت أننا نشترك فى مفهوم واحد للكرامة.. فعندما كنا نناقش أعتى الأمور وأصعب المشكلات من خلال

نقط خلاف كثيرة ومتنوعة.. لم يعرف التوتر والضيق والتشنج طريقه إلينا.. فلم ينظر كلانا إلى الأمور بالمنظار التقليدى الضيق سواء إلى الكرامة القومية أو الكرامة الشخصية.. كان يمكن لهذا المنظار أن يدخل المفاوضات فى طرق مسدودة- ومتاهات جانبية لا يستطيع الطرفان الخروج منها مرة أخرى إلى الطريق الواضح السليم.

إننا فى أشد الحاجة إلى هذا المفهوم الناضج للكرامة.. فعندما يتحول إلى جزء من فكرنا وسلوكنا سنجد أن التفاهم بيننا أصبح أكثر سلاسة ومرونة وموضوعية. فالكرامة معنى رفيع وكبير يجب أن نترفع عن إقحامه فى كل دقيقة من دقائق حياتنا. لأن الشخص القوى الواثق من نفسه يعرف جيدا أن كرامته فى حصن حصين مادام قد حاز احترام الآخرين بفكره الناضج وسلوكه المتحضر.. إن هذا المفهوم الحقيقى للكرامة ضرورى وحيوى لبناء الإنسان المصرى سواء على المستوى الإنسانى الشخصى أو على المستوى الوطنى القومى.

www.anwarsadat.org